صورة صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن الدهان الموصلي (ت٥٨١هـ)

م.د. جرجيس عاكوب عبدالله الراشدي*

تأريخ التقديم: ٢٠١٨/٨/١٢ تأريخ القبول: ٢٠١٨/٩/١٧

توطئة:

تعددت صورةُ (صلاح الدين الأيوبي) في شعر (ابن الدهان الموصلي)، وتنوعت معانيها، مما يدل على براعة الشاعر وحذاقته، إذ شكلت شخصيتُهُ محورًا أساسيًّا في شعره، زاد من ثراء قصائده وجمالها، وتكشف الصورة عن ((تواصل مقصودٍ مع الواقع، وأحداثه، بأدوات فنية ذات قيم تثير الانفعال))[١]، لتقريب صورة الواقع الشعري من ذهن المتلقي، بحالات إنسانية، وانفعالات وجدانية تعمل على إخراج الصور والمعاني بإطار موضوعيٍّ؛ لأنها ((تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الإذهان))[٢]، إذ وظف الشاعر الصورة؛ لتوضيح معانيه وأفكاره.

تكمن خصوصيةُ البحث في شخصية صلاح الدين الأيوبي التي كانت محط أنظار الشعراء وقبلتهم، بوصفه قائدًا بطلًا، وكريمًا شجاعًا، في زمن الحروب الصليبية، جعل منَ الشعر مرآة ذاته، وسجل أحداث عصره، وناطقه الإعلامي، إذ ضَمَّ مجلسُهُ مشاهير شعراءِ عصرهِ وخيرة كتَّابهِ فيه؛ لتخليد مآثره وانتصارته، لأن الشخصية ((أبرز ميادين الصورة، وهي نشاطٌ ذهني يتشكل

---

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

(١) الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: د. مقداد خليل قاسم الخاتوني، مجلة آداب الرافدين، العدد ٦٩، سنة ٢٠١٤، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٧٣.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني (ت: ٦٨٤ هـ)، تحقيق: محمد بن الحبيب ابن الخوجه، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦ ، ١٢٠.

باللغة شرطه الأساس أنْ يكون معبرًا عن مكنونات النفس بإخراجها عبر تفاعل متوازن بين حسِّ الشاعر، وإدراكه))[١]، والصورة التي نبحث عنها ذات سمة موضوعية دلالية تكشف معاني الشاعر وأفكاره في التركيب والتشكيل، لأن الشاعر ((يدُلي بشهادةٍ لغوية عن مرئيٍّ / منظور، أو معنويٍّ يدرك بالحسِ والشعور، ويتمحور حول الذات والجوهر))[٢]، لترتكز الصورة / الشهادة في تراكيب لغوية وألفاظ يرسم الشاعر بها صورًا تجسد شخصية الممدوح بقيمها ودلالاتها المتفاعلة مع واقع الحياة، يلتمسها الشاعر بلغة شعرية، ورؤية واعية، لتصبح ((وسيلة حتمية، لإدراك نوعٍ متميز من الحقائقِ، تعجز اللغة العادية عن إدراكه وتوصيلة، وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة قرينة الكشف والتعرف على جوانب خفيَّة من التجربة الإنسانية))[٣]، لتعبر اللغة الشعرية عن إحساس الشاعر وعاطفته بالصورة، ومحمولاتها الدلالية، ومضامينها الموضوعية، وقيمها، لأنَّ الصورة في جَوهرها ((رسم قوامه الكلمات المشحونة بالإحساس والعاطفة))[٤]، فالجملةُ الشعرية لم تعد وسيلة للتفاهم والخطاب، بل هي لوحة فنية تُرسمُ بها الأحداثُ والمواقفُ.

وبعد قراءة ديوان (ابن الدهان الموصلي) وجدنا حضور صلاح الدين الأيوبي حضورًا فاعلًا ومتميزًا في شعره، حفزنا للوقوف على صوره التي رسمها

(١) الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٧٤.

(٢) البطل في شعر علي بن خلف الحويزي (ت ١٠٨٨هـ – ١٦٧٧م)، د. شريف بشير أحمد، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد الثامن، العدد الثاني، ٢٠٠٩ م، ١٥٦.

(٣) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، القاهرة ١٩٧٣، ٣٨٣.

(٤) الصورة الشعرية: سي دي لويس، ترجمة: أحمد نصيف الجنابي، ومالك ميري، وسلمان إبراهيم، مراجعة: د. عناد غزوان إسماعيل، مطبعة مؤسسة الخليج، الكويت ، منشورات دار الرشيد ببغداد، سلسلة الكتب المترجمة ، ١٩٨٢م ، ٢٣.

لـه بالكلمـات، التـي تبعـث الجمـال فـي الـنص الشـعري وتزينـه، بالدلالـة الموضـوعية وقيمها الدلالية، والمعاني وأنساقها والصور وأنواعها.

١- صورةُ صلاح الدين الأيوبي شجاعًا:

تعـد الشـجاعة والبطولـة مـن الفضـائل التـي أحبهـا الإنسـان، وصـورة صـلاح الـدين الأيـوبي البطـل الشـجاع مـن الصـور المتـواترة فـي شـعر ابـن الـدهان الموصـلي، ومـن أقسـامها ((الحمايـة والـدفاع، والأخـذ بالثـأر، والنكايـة فـي العـدو، والمهابـة، وقتـل الأقـران، والسـير فـي المهامـه الموحشـة، ومـا أشـبه ذلـك))[١]، فكانـت صـورة الفـارس المغـوار، الـذي يـبطش بالأعـداء ويهـزمهم، ومـن هـذه الصـور تهـوين شـأنهم بهلعهـم، وصـورة البطـل القـوي، الـذي استبسـل فـي الـدفاع عـن ديـار المسـلمين وملكـه، وزرع الثقـة فـي القلـوب بالحكمـة والـدهاء فـي إدارة المعـارك وقيادتهـا، وصـورة عِظـم الهمـة وثباتهـا، وصـورة عـزة الـنفس وقوتهـا، فهـذه الصـور كلهـا تنـدرج ضـمن المعنـى الأشـمل لصـورة الشـجاعة، التـي تنوعـت فـي شـعره وانصهرت في الصورة الكلية التي تصبُّ في نسق الشجاعة ومعانيها.

قال ابن الدهان الموصلي[٢]:

فـإذا تنمَّـر قـال لـلأرْضِ ارجعـي ... بالصَّـاهِلات وللجّبـالِ تَزَعْزعـي

وإذا عَـلا فـي المجْـد أَعْـلا غايَـةٍ ... قالَـتْ لـه الهِمَـمُ الجسَـامُ تَرَفَّـعِ

ثَبْـتُ الجَنَـانِ إذا القُلـوبُ تَطـايَرتْ ... فـي الـرَوْعِ يَعْـدِلُ أَلـفَ أَلـفَ مُـدرَّعِ

جَمـعَ الجيـوشَ فَشَـتَّ شَـمْل عِداتِـه ... مـا فـرَّق الأَعـداءَ مِثْـل تَجمُّـعِ

لـم يثْنِـهِ عـن نَصْـرِهِ خُلَفـاءَهُ ... عِظَمُ العَـدوِّ ولا بعـادُ الموضـعِ

---

(١) نقـد الشـعر: أبـو الفـرج، قدامـة بـن جعفـر(ت: ٣٣٧ هــ)، تحقيـق: د. محمـد عبـد المـنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٩٨.

(٢) ديـوان ابـن الـدهان: (أبـو الفـرج مهـذب الـدين عبـد الله بـن أسـعد الموصـلي)، حققـه وأعـد تكملته: عبدالله الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد، ط ١ ، ١٩٦٨، ٣٠-٣١.

بجحافـــلٍ مثْـــلِ السُّـــيولِ تَـــدافَعتْ وإذا الســـــيولُ تـــــدافَعت لـــــم تُـــــدْفَعِ

والطَّيْـــرُ مِـــنْ ثِقَـــةٍ بأَكْـــلٍ مُشْـــبعٍ تَبِعَـــتْ جُيوشَـــكَ فـــوق غـــابٍ مُسْـــبعِ

حضـرتْ شـجاعة صـلاح الـدين الأيـوبي فـي شـعر ابـن الـدهان الموصـلي حضـورًا متواصـلًا ومتراكبًـا، أخرجهـا فـي صـورة النمـر يفتـرس الطرائـد للدلالـة علـى بسـالتِهِ وقوتـه، وصـورة الفـارس البطـل الـذي يخـوض المعـارك بحنكـة ومهـارة، وصـورة القائـد الـذي يستبسـل فـي الـدفاع عـن الأرض، وصـورة المـروءة فـي إغاثـة المسلمين فـي الشـام ومصـر مـن بطـش الصـليبيين، لـذلك تعبـر الصـور مجتمعـةً عـن ((قـوة وشـجاعة فائقـة فـي الوصـول إلـى المعتـدي والقضـاء عليـه، وعـن مـروءة تتمثـل فـي حزمـه فـي القـول والفعـل، وفـي صـبرِهِ وجَلَـدِهِ وتضـحيتهِ فـي مواجهـة الظـروفِ))[1]، إذ ظهـرت شـجاعته بصـولة خيولـه التـي ترتجـف الأرض مـن تحتهـا؛ لكثرتهـا وقوتهـا، وتتزعـزع الجبـال منهـا خوفـا ورعبـا، وشـكلت ألفـاظ الجمـع وصـيغه (الصـاهلات، والجبـال، والهمـم، والجيـوش، والأعـداء، والسـيوف)، دلالـة واضـحة علـى شـجاعته وقـوة جيشـه وكثرتـه (الجيـوش، والجحافـل، والسـيول) التـي فتكـت بالأعـداء وأرهقـتهم، حتـى وثقـت الطيـور الكواسِـرُ بنصـره فلحقـت جيشـه لتأكـل مـن جثـث أعدائـه حتـى تشـبع لكثـرة القتـل الـذي لحـق العـدو، فهـو فـارس يعـدل ألـف ألـف فـارس مـدرع لثباتـه، وهـذه المبالغـة خياليـة فيهـا خـروج عـن الأعـراف المألوفـة، لإثـارة التخييـل فـي ذهـن المتلقـي؛ ولتأكيـد شـجاعته وإثباتهـا، فـلا يعـرف الخـوف أو الـوهن سـبيلا إلـى قلبـه، ولا يجـدُ الضـعف طريقـا إلـى عقلـه، إذ فـرق أعـداءَه بجـيش كالسـيل الجـارف الـذي لا يُبقـي ولا يـذر، وشـكلت ألفـاظ (تتمـر، وعـلا، وثبـت الجنـان، ولـم يثنـه)، قـوة صـلاح الـدين الأيـوبي وثباتـه؛ للدلالـة علـى شجاعته في قيادة المعركة وبراعتهِ في إدارة الحرب مع أعدائه.

(١) البطولـة فـي الشـعر العربـي قبـل الإسـلام: د. مؤيـد اليـوزبكي، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، بغداد، ط١، ٢٠٠٨م، ٨٩ .

وتبلورت صورة النسب العريق لصلاح الدين الأيوبي وشجاعته في شعر ابن الدهان الموصلي، في قوله[١]:

من دَوْحةٍ شاذيّةٍ أرِجتْ لها الد نيا لِطيبِ شذىً لها مُتَضوّعِ

المعْرِضين إذا تعرَّضَ مَطْمعٌ والمُقْبلينَ إذا دَعَوْا في مَفْزَعِ

والنَّاثِرين الهامَ يَبْرقُ بيضُه والخارِقين مُضاعَفاتِ الأدْرُعِ

قومٌ إذا يَقَعُ الصَّريخ تَبادَروا نَحْوَ الحِمامِ بكلِّ أبْلجَ أرْوَعِ[٢]

لا يَغْرُرَنَّ الرومَ بُعْدُ دِيارهم إنَّ الخليجَ لديْكَ أقْربُ مُشْرَعِ

لو أنَّ مِثْلَ البحْر سَبْعةُ أبْحرٍ مِنْ دُونِهِمْ وأزَدْتَهم لم تَمْنَعِ

يقتنص الشاعر من النسب صورة شجاعة صلاح الدين الأيوبي وبطولته؛ فأظهره من أسرة أنجبت ملوكًا وأمراءَ وقادةً، (تبادروا) في قهر الصليبيين وهزيمتهم، وهو فعل إرادي جماعي للقوم يتشاركون فيه، فلم تعد ديار الروم في زمن الأيوبيين في مأمن من شجاعتهم وفروسيتهم، فهم (المعرضون) عن الغنائم لعزةٍ في نفوسهم، وهم (المقبلون) في الشدائد لأنهم أصحاب نخوة ومروءة عند الفزع، لأنهم ((أبطال آلوا على أنفسهم أن لا يلقوا وجه ربهم إلا بما يرفع النفس قدرًا أمام خالقها، ويأبون الرذائل حتى لو قدم لهم البقاء))[٣]، وشكلت ألفاظ الجماعة (الناثرين، والخارقين)، ركائز قوة قومه وشجاعتهم في مقاتلة الأعداء التي تغنى بها الشاعر في رسم صورة صلاح الدين الأيوبي، فهو شجاع من قوم شجعان نسبًا وبطولة يتناسلونَ بسالةً ومروءةً وشدّةً.

---

(١) ديوان ابن الدهان: ٣١-٣٢.

(٢) الحِمام: قضاء الموت وقدره. ينظر : لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور(ت: ٧١١هـ)، دار صادر، دار بيروت، بيروت، لبنان، ط٣ ،١٤١٤هـ، ١٢ / ١٥١، مادة (حمم).

(٣) البطل في شعر الحروب الصليبية (٤٨٩-٥٨٩هـ): د. عاصم عبد دواح، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، العراق، بغداد، ط١، ٢٠١٠، ٦٨.

وجمع الشاعر بين فضيلتي الشجاعة والكرم لرسم صورة صلاح الدين الأيوبي، ومزج بينهما لتكتمل الصورة عند المتلقي، إذ قال ابن الدهان الموصلي[١]:

كَريمٌ على العافِين كالغيْثِ مُسْبِلاً شَديدٌ على العادِين كالليْث مُشْبِلا

وسيلٌ إذا ما المالُ أقْنى فأَجْزلا وسيفٌ إذا ما سُلَّ أفْنى وقَلّلا

فما سُلَّ إلاّ أهْلك الشِّركَ حدُّهُ ولا سُئِلَ الإحسان إلاّ تهلَّلا

حياةٌ إذا يَرضى حِمامٌ إذا سَطا قَديرٌ إذا يعفو عفيفٌ إذا خلا

وحلوٌ إذا والَيْته لَذَّ أَرْيُه لديْكَ وإنْ عادَيْته عادَ حَنْظَلا

تجمَّع فيه البأْسُ والحلمُ والنَّدى وضَمَّ إلى الفضل الغزيرِ التَّفضُلا

فردَّ جَبانًا بأْسُه كلَّ باسِلٍ وخلّى نَداهُ كل سَمْحٍ مُبخَّلا

وظَّف الشاعر الصورة التشبيهيه في تشكيل صورة الكرم لصلاح الدين الأيوبي وشجاعته، فهو كالغيث المسبل في كرمه، وكالليث المشبل في شجاعته، واستعمل حرف التشبيه (الكاف) لتكون الصورة قريبة من ذهن المتلقي وخياله، وكان للجناس أثرٌ فاعلٌ من خلال تقارب مخارج الألفاظ وتناغمها في تشكيل صورة الممدوح، وجعل الألفاظ متناسقة ومترابطة (العافين– العادين، كالغيث – كالليث ، مسبلا، مشبلا)، نشاطًا شعريًّا له إيقاعه المؤثر، في ثبات الصورة التي أكسبها دفقًا دلاليًّا ومعنويًّا[٢].

وحل البيت الثاني مكملا لمعنى البيت الأول ومتناغماً معه، فإذا أجزل كرمه أقنى، وإذا سل سيفه أفنى، وشكل الجناس الناقص بين (سيل و سيف) ، و(أقنى و أفنى) حركة محورية دائرية بين الكرم والشجاعة، وجاء البيت الرابع كاشفاً معنى الصورة المركبة، فلا يسل السيف إلا على الأعداء الصليبيين الذين

(١) ديوان ابن الدهان: ٣٩–٤٠.

(٢) ينظر: الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٧٨ .

ناصبوا الإسلام العداء، أما الإحسان / الكرم فإنه يتهلل لمن سأله أمرًا أو رجاه في طلبٍ.

ورسم الشاعر صورة صلاح الدين المركبة من نقيضين (الحلو و الحنظل) ليكشف للمتلقي حضور الآخر معه حضورا مباشرًا، وأنه حلو كالعسل إذا واليته، وحنظل مرٌّ إذا عاديته، إنَّ تكرار (البأس) له قوة وحياة ، ولخصمه موت وذل، وتجمعُ هذه الصورة البأس والحلم مع الندى، حتى يرجع الفارس من أعدائه جباناً طريداً يطوقه الذل والهوان، فكرمه لا تُقاسُ به سماحة الكرماء.

وتشكلت الصورة من نسقين متوازيين ومتجاورين ومتلازمين، نسق العطاء (الكرم)، ونسق اللقاء (الحرب)، والنسقان فيهما تكامُلٌ في الفعل، بمحمولاته التأويلية التي ينفرد بها دون غيره.

وجاءت شدة بأس صلاح الدين الأيوبي نقطة انطلاق للشاعر في رسم الصورة؛ إذ قال ابن الدهان الموصلي(١):

إذا همَّ بالأَعْداءِ أخْلا بِلادَهم بجيشٍ إذا ما بأْسُه مَلأَ المَلا

وكانت حِمىً أرضُ الفِرنْج فأصْبحتْ سَبيلًا لأَبْناء السَّبيلِ مُذلَّلا

خَشوا أنْ يُلاقُوا جحْفلًا كلَّ فارسٍ يعدّونَه منه خَميسًا وجَحْفلا

ولو أنَّهم أَضْعافهم حين جمَّعوا جموعَهمُ ما كدَّروا لكَ مَنْهلا

وهابُوكَ حتى الفارس الشَّهم مَنْ رأى بجيْشِكَ نارًا أوْ تأمّل قَسْطَلا

ولو أنَّهم كالرَّملِ أو عددِ الحَصى لَما بَيَّتوا إذْ عايَنُوكَ كَلا وَلا

رسم الشاعر صورة صلاح الدين الأيوبي شديد البأسِ في المعركة، فجعلَ بطشته تدخل الرعب في قلوب أعدائِه، وهم في ديارهم، فكيف بهم في المواجهة ؛ لتمكن جيشه من بسط سيطرته على الأرض، فالرعب دخل إلى قلوب فرسان الجيش الصليبي عندما رأى جيش صلاح الدين الأيوبي، فإذا بهم يلوذون

(١) ديوان ابن الدهان: ٤٢-٤٣ .

بالفرار والهزيمة، وقد أظهرت هذه الصورة قوة صلاح الدين الأيوبي وجيشهِ ومهارتهم في مواجهة الصليبيين، فمن مظاهر قوة القائد ((الحنكة العسكرية، التي تبدو في حسن الاستعداد، وبراعة التنظيم، والتخطيط السليم للمعركة...ومع الحنكة العسكرية شدة الصولة على الأعداء، والبطش بهم)) [١]، وصور الشاعر ذلك بالأفعال التي جاءت بنسق المخاطب الفردي القوي (همَّ، أخلا، ملأَ)، وأما صفات الأعداء فحلت بنسق جماعي فيه الضعف بالفعلين (خشوا، وهابوك)، وجاءت الصورة مباشرة في (هابوك، عاينوك)، وبضمير الجمع الغائب في (بلادهم، وأضعافهم، وجموعهم)، وكلها إشارات صريحةٌ على قوة صلاح الدين وشجاعته التي أبهرت الأعداء، وأذهلتهم، وجعلتهم أشتاتًا بين القتل والهزيمة.

وأكد الشاعر ابن الدهان الموصلي شجاعة صلاح الدين الأيوبي وجيشه في واقعة بيسان[٢]، فقال [٣]:

وفي يَومِ بَيْسانٍ سقيْتَهمُ الرَّدى وغادَرْتَ أَخْلافَ المنيّة حُفَّلا[٤]

وَطيْتهمُ رغْمًا فلم يُغْنِ حَشْدَهم ومن ذا يَردُّ السَّيلَ من حيثُ أقْبلا

بخيْلٍ إذا أوليتها النَّجمَ حَلَّقتْ إليه وإنْ أوطأتها الحَزْنَ أسْهلا

---

(١) أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع للهجرة: مأمون فريز جرار، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط١، ١٩٨٣م،١٢٤ .

(٢) بيسان: مدينة بالأردن، بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين. ينظر: معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت ، لبنان، ط٨، ٢٠١٠م : ١/ ٥٢٧.

(٣) ديوان ابن الدهان: ٤٣-٤٤ .

(٤) يوم بيسان: يريد مدينة بيسان التي وصلها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٩ هـ معه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر، فرأى أهل أهلها قد فارقوها خوفا، فأحرقها وخربها، فاجتمع الفرنج، وعندما رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه خوفا. ينظر: الكامل في التاريخ: عز الدين علي ابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م ،٤٧٧/٩. إلى الفرنج، فعبر نهر الأردن

وضـرب يُقـدُّ البـيضَ كـالبيضِ عنْـدهُ وطعْـنٍ يُريـكَ الزُّغْـفَ بُـرْدًا مُهَلْهـلا[1]

وكـــم أسْـــمرٍ أوردت أوْرِدَةَ العِـــدا وكـــم أجْـــدلٍ عـــافٍ قريـــت مُجـــدَّلا

فَقسّـمتَهم فـي المُلتقـى قِسْـمَ جـائرٍ وإنْ كنْـتَ فـيهم عـادلًا ومُعـدّلا

قتـــيْلًا صَـــريعًا أوْ جريحًـــا مُضـــرَّجًا وخِـــلًّا طَريـــدًا أوْ أسِـــيرًا مُكـــبَّلا

يكشف الشاعر عن صورة شجاعة صلاح الدين الأيوبي وبطولته في دحر جيش العدو، إذ سقى الجيش الصليبيّ الموت الزعاف، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم ينفعهم جمعهم وحشدهم، فقوته مثل السيل العارم الجارف لا يوقفه شيء، لعظمة جيشه وقوته، بدلالة ألفاظ الحرب وأدواتها (الخيل، والأسمر) التي تدل على الفعل الجماعي القوي، وجاء الشاعر بالأفعال (سقيتهم، وطيتهم) للدلالة على قوة صلاح الدين وشجاعته، فالسقي والطي جاء رغم أنف الأعداء الذين تفرَّق جمعهم، وكان مصدر قوة صلاح الدين خيوله وفرسانه التي كانت خفيفة الحركة سريعة العدْو، بدلالة الأفعال (أوليتها، أوطأتها)، فهي تحلق حول النجوم تحليقًا مجازيًّا لخفتها، وتجعل من الجبال الوعرة سهلة في الحركة لقوتها وصبرها، وجاءت الأفعال (ضرب، وطعن) للدلالة على كثرة القتل والطعن في جيش الأعداء، وجاء هذا الضرب بالسيوف البيض والرماح السمر التي حسمت المعركة في يوم بيسان، إذ جعل صلاح الدين جيش العدو أربعة أقسام لا خامس لها: (قتيلًا صريعًا، أو جريحًا مضرجًا، أو خلًا طريدًا، أو أسيرً مكبلًا)، وهي صورة معركة توثق صلابة صلاح الدين وشجاعته، ونهاية أعدائهِ، وكشفت آلية التضاد بين (جائر، وعادل)، صورة صلاح الدين الحربية التي وزعت مخرجات المعركة بالتساوي على جيش العدو، بدلالة الصفة كنت فيهم عادلا و(معدلا)، كما أثبتت تاء الفاعل في الأفعال(سقيت، وغادرت، ووطيت، وأوليت، وأوطأت، وأوردت) صورة صلاح الدين الأيوبي المتحركة وجيشه الناشِطَ في المعركة (السيل، والخيل)، لتلتحم الصورة وتتلازم بين القيادة

(١) الزغف: الدروع المحكمة . ينظر: لسان العرب: ٩ / ١٣٥ ، مادة (زغف).

والجيش، فقد شكل الشاعر بهذه الأبيات صورة القائد البطل القوي الذي قهر الأعداء وأذلهم في واقعة بيسان.

ويرسم الشاعر ابن الدهان الموصلي صورة صلاح الدين الأيوبي الذي انتشل الأمة الإسلامية من سباتها وغفوتها ، برفعته وفضله، إذ قال [1]:

ولما ادْلهمَّ الدّهْرُ يومًا بَدا بهِ سَنَاكَ فقد أَضْحى أغَرَّ محجَّلا

وقد كانَت الدُّنيا كَشَوْهاءَ عَاطِلٍ فَصِرْتَ لها حُسْنًا وصُغْتَ لها حُلى

ولولاكَ ماتَ الفَضْلُ هُزْلا وأصبْحت رياضُ الأَماني ذَاوياتٍ وعُطّلا

يَفيضُ لمصْر نيلُها ثُمَّ يَنْثِني بَكيًّا قليلًا مِثْلما كانَ أَوَّلا

لعلَّك راثٍ للفضائِل والنُّهى فَتُحيِيَ مَيْتًا أوْ تُميْتَ مُعْطَّلا

بقيتَ على الإسلامِ حِصْنًا ومَوئِلًا وليْثًا وغيثًا مُسْتَهلًّا وَمعْقِلا

رسم الشاعر صورة شجاعة صلاح الدين الأيوبي برفعته وفضله، فأصبحت ديار المسلمين عصية على أعدائها، وتحققت أماني الناس، فأحياها بفيض جوده، بدلالة التركيب (تحيي ميتًا)، وتظهر الصورة اللونية تحولًا في الزمن، من الشدة إلى الرخاء، بدلالة التراكيب (ادلهم الدهر، وأغر محجلا)، وعزز الشاعر الصورة بالتضاد فأكد أن الدنيا كانت قبله (شوهاء)، فجمع شتات الناس، ووحد الكلمة والصف على محاربة الغزاة الصليبيين، فصارت الدنيا فتاة حسناء صاغَ لها الحلي بعد أن كانت عاطلًا منها على التعبير الاستعاري للصورة، فتغير الحال من الضعف والوهن إلى القوة والنصر، ومن القتامةِ إلى البهاءِ والنضارةِ، بالألفاظ التي تدل على التحول في الزمن (أضحى، وصرت، وأصبحت)، إذ كشفت الصورة أن صلاح الدين هو البطل والمنقذ، فأصبح حصنًا للمسلمين منيعًا، وأسدًا غيورًا يحمي ديارهم.

(١) ديوان ابن الدهان: ٤٥ – ٤٦.

وتنوعت صور صلاح الدين الأيوبي في شعر ابن الدهان الموصلي الدالة على شجاعته، فقال[١]:

ما حلَّ رَبْعَ المحْلِ أَغْبَر قَاتِمًا إلاَّ وأَصْبَح من نَداهُ أَخْضَرا

أو سَلَّ يومَ الرَّوع أبيضَ صارِمًا إلاَّ وعَادَ مِن الأَعادي أَحْمَرا

أَوْ هَزَّ في الهيْجاءِ أَسْمَرَ ذابِلًا إلاَّ وآلَ برأْسِ طاغٍ مُثْمِرا

تُردي الكتائِب كُتْبُه فإذا مَضَتْ لم نَدْرِ أَنفَذ أَسْطُرًا أمْ عسْكرا

يرتكز الشاعر في الأبيات على عدة صور يرسمها لصلاح الدين الأيوبي، ويبدأها بالصورة اللونية في تشكيل صورتي الشجاعة والكرم (أغبر ـــ أخضرا، أبيض ـــ أحمرا)، فإذا حل في أرض جرداء قاحلة تصبح ربيعًا أخضر بِكرمِهِ وعطائِهِ؛ أما الصورة الثانية فهي الشجاعة والقوة والتمكين في القتال، إذ يصبح سيفه الأبيض أحمرَ من دماء الأعداء لكثرة قتلهم، فقد ((آثر هذا البطل – صلاح الدين– كثرة الجهاد على كثرة الأموال))[٢]، وتبرز الصورة الثالثة بحركة صلاح الدين السريعة في تشكيل صورته في الحرب (سلَّ، وهزَّ)، إذ يوظف الشاعر الرمح – من أدوات الحرب – يطعن البطلُ به كل طاغية متجبر أو خارجٍ عن سلطانه،، وتكتمل الصورة الرابعة في قتلى جيش العدو لكثرتهم، بصيغة الجمع (الأعادي، والكتائب)، والسؤال هل كانت الكتبُ التي أرسلها صلاح الدين لأعدائه فيها التهديد والوعيد؟ أم هي قوة عسكرية أنفذها إليهم، فإذا كان جيش العدو تنهار صفوفه ويموت خوفا من تهديد الممدوح بالكتابة، فأنهم في المواجهة يولون الدبر دلالة على قوة صلاح الدين وقدرته على إنفاذ تهديده على أرض المواجهة، وبذلك تساوت الأسطر والعساكر في الفعل في بناء الصورة.

(١) ديوان ابن الدهان : ٥١ .

(٢) البطل في شعر الحروب الصليبية: ٦٨ .

وأخذت الحروب المتواصلة بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام مسلكًا خطيرًا بعد سقوط بيت المقدس (٤٩٢ هـ) في أيدي الصليبيين، إذ برز عددُ من القادة المسلمين الأفذاذ في الدفاع عن ديار الإسلام، مثل: نور الدين زنكي (ت: ٥٦٩ هـ)[١]، وصلاح الدين الأيوبي، فتبدل الحال.

فقال ابن الدهان الموصلي[٢]:

والشامُ قد أَضحى حِمىً بك بعدما أَشْفَى وأَمّلْت العِدا أن تَظْفرا

أمسْى لنورِ الدين ليْلًا مُظلمًا حتى أتيْتَ فكانَ صُبْحًا نَيّرا

فكأَنه داعٍ أُجيبَ دُعاؤُهُ أَوْ كانَ خُيِّر في الورى فتخيْرا

وأتاكَ منْشورُ الخلافَةِ شاكِرًا لكَ أَنْ أَعدْتَ الحقَّ حيًّا مُنْشرا

وأراهم أنَّ الخلافَةَ مُقْلةٌ أصبحْتَ أَنتَ سَوادَها والمحْجَرا

أضْحى بَنو العبّاسِ يَضْحك مُلكُهم أَمْنًا وأَنتَ سَدادُهُ أنْ يُثْغرا

أخذ الشاعر يرسم صورًا شعرية متعددة لصلاح الدين الأيوبي بوصفه قائدًا وبطلًا من أبطال المنازلة في الحروب الصليبية؛ فالبطل في ((الحياة والشعر، مقاتل جسور، وشجاع مقدام وليس بمتهوِّر ولا خوَّار، فتَّاك في صراعه مع الأعداءِ... يظهرُ في الوجودِ الواقعيِ بكيانٍ حسي منظور، وشخصية حيةٍ؛ بوصفهِ مركزَ القوةِ المشعَّةِ))[٣]، إذ كشف التضاد بين قوله: (ليلًا مظلمًا، وصبحًا نيرا) صورة القيادة، وتحولات الزمن تحولًا إيجابيًّا، إذ أصبحت الشام صبحًا نيرًا بصلاح الدين، بعدما كانت مظلمة بدخول الصليبيين بعض مدنها ، وكان اختيار نور الدين زنكي لصلاح الدين الأيوبي لقيادة الجيش اختيارًا موفقًا

(١) هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي(ت:٥٦٩ هـ)، الملقب بالملك العادل، في بلاد الشام ومصر، عرف بعدله في رعيته، وشغوفا بالجهاد ضد الصليبيين، ينظر: الأعلام: ١٧٠/٧.

(٢) ديوان ابن الدهان : ٥٣.

(٣) البطل في شعر علي بن خلف الحويزي، ١٦٥.

وحاسمًا، وكأنه دعا الله (عز وجل) أن يهيئ له من يعيد العزة للأمة، فكان صلاح الدين هو الخيار الأمثل، وما إن اندحر الأعداء في بلاد الشام حتى قدم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (ت:٥٧٥ هـ) ببغداد شكره وثناءه لصلاح الدين الأيوبي، بدلالة كاف الخطاب (أتاكَ: لكَ – صلاح الدين) الذي أعاد للخلافة هيبتها وأمنها، وعزز ذلك ضمير المخاطب (أتيتَ، وأعدتَ، وأصبحتَ: أنتَ)، وأصبح عينَ الخلافة وسوادها، فالتشخيص بالاستعارة المكنية في الفعل (يضحك) يكشف الدور القيادي لصلاح الدين الأيوبي في معارك بلاد الشام.

ويرسم الشاعر صورة صلاح الدين الأيوبي، بمجموعة من القيم تدل على شجاعته وعظمة شخصيته ونُضْجها؛ إذ قال ابن الدهان الموصلي[١]:

لـــهُ هِمّـــةٌ لا تَنثَنَـــي دُونَ مُمْكـــنٍ ورأيٌ إذا مـــا الـــرأْيُ قـــالَ نجـــيحُ

إذا خفَيـتْ طُـرْقُ المعَـالي عـن العِـدَا فَفيهـــا ظُهـــورٌ عنْـــدهَ وَوضـــوحُ

عطـــاءٌ إذا شَـــفَّ العَطـــاءُ مَـــوفّرٌ وحِلْـــم إذا خَـــفَّ الحلـــومُ رجـــيحُ

هَنيئًـــا لأَرضٍ حـــلَّ فيهـــا فإنَّـــه يســـحُّ النَّـــدى منـــه بهـــا ويســـيحُ

إذا مـــا أَتـــى ميْتًـــا مـــن الفَقْـــر جـــوُده فمـــا هـــو إلاّ عَـــازرٌ وَمســـيحُ

جـاء الشـاعر فـي رسـم صـورة صـلاح الـدين، بالتوكيـد للكشـف والتخصـيص (رأي والـرأي، عطـاء والعطـاء، حلـم والحلـوم)، فكانـت بينـة عنـده وجليـة (ظهـور عنـده ووضـوح)، فهـو ذو همـة لا تكسـر، ولـه رأي وحلـم، حتـى أن الأرض التـي ينـزل بهـا يفـيض كرمـه فيهـا علـى أهلهـا، ويرفـع العـوز والحاجـة عـنهم، وشـكل الجنـاس بـين (يسـح ويسـيح)، حركـة فـي الصـورة وفاعليـة فـي الإيقـاع؛ لأن التماثـل الصـوتي ((يقـوي العلاقـة المعنويـة بـين الوحـدات المعجميَّـة))[٢]، إذ إن كرمـه يقتـل الفقـر فـي الصـورة والواقـع؛ ليحيـا الإنسـان حيـاة كريمـة، وهـذه ((ذروة

(١) ديوان ابن الدهان : ١٧١ .

(٢) فـي سـيمياء الشـعر القـديم (دراسـة نظريـة تطبيقيـة): د. محمـد مفتـاح، دار الثقافـة، الـدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٢م، ٧٨.

إنسانية تتمثل في بذل المال من أجل انتشال النفس البشرية من قبضة الموت))[١]، وهو يحاكي بذلك معجزات السيد المسيح(عليه السلام) بإحياء الموتى بعد قتلهم، وتظهر جمالية الصورة بوجه الشبه بعودة الحياة الخصوبة بعد الفقر والجدْبِ.

ويقتنص الشاعر صفة الشجاعة عند صلاح الدين الأيوبي في تقسيم جيش العدو، فقال ابن الدهان الموصلي[٢]:

وإنْ حارَبَ الأَعْداءَ أَمسى أقلُّهم طَريدًا وإمّا جُلُّهم فَطريحُ

فَريقانِ شتّى كُلُّهم بجسومِهِم جُروحٌ وفي حَبِّ القُلوبِ جُروحُ

فَيا جَبلَ العزِّ الذي هو شَاهِقٌ من المجد وُهْدٌ دُونَه وسُفوحُ

أظهر ابن الدهان الموصلي صورة صلاح الدين الأيوبي القائد المحارب الشجاع، فقسم أعداءه إلى قسمين: طريد / مهزوم وهم القلة يلحقهم الذل والهوان، وطريح / قتيل وهم الكثرة في أرض المعركة، فما عاد من جيش الأعداء فارس سليم الجسد كلهم جراحٌ لا قدرة لهم على المواجهة، وشكل الجناس بين (جروحٌ وجروحُ)، فاللفظة الأولى تدل على كثرة طعن الأعداء، وأما اللفظة الثانية فتدل على الألم والقهر، بدلالة صيغة الجمع (الجسوم، والقلوب)، ويطلق الشاعر لقب (جبل العز)، كناية عن صلاح الدين الأيوبي الذي كان عاليًا بالمجد، للدلالة على مروءته وعزة نفسه التي لا تنام على ضيم. ويرسم الشاعر صورة النصر لبني أيوب والظفر، وصلاح الدين الأيوبي جزء منهم وقائدًا لهم، فيقول[٣]:

وقَوّال إذا الأبطالُ فرَّتْ مكانك ثَبْتة ما مِنْ بَراحِ

إذا ما لاقوا الأعداءَ عادوا بآيِ النَّصرِ والظَفَر الصُّراحِ

(١) البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام: ٧١.

(٢) ديوان ابن الدهان : ١٧٢.

(٣) ديوان ابن الدهان : ١٧٢.

بأرمـــــاحٍ محطَّمـــــةٍ وبـــــيضٍ مُثلّمَـــةٍ وأَعـــراضٍ صِـــحاحِ

ليفْـــدِ حَيـــاءَ وجهـــكَ كـــلُّ وجْـــهٍ إذا سُـــئلَ النَّـــدى- جَهْـــمٍ وَقـــاحِ

شكلت صورة الشجاعة مصدرًا من مصادر البطولة في بني أيوب ((المتقدةِ في النخبةِ التي ترفضُ الحياةَ الذليلةَ، والحرمانَ المهينَ، والتي تُحولُ الحياةَ والمجتمعَ من السكونِ إلى الحركة، ومنَ الغيابِ إلى الحضورِ، ومنَ الشقاءِ إلى السعادةِ))[١]؛ لتحقيق العدالة وتقويم المضطرب، وما كان ذلك إلا برماحِ جيشه وسيوفهم، بدلالة صورة المعركة (رماح محطمة، وبيض مثلمة)، للذود عن العرض والأرض، ولا يدخل الخور والضعف إلى قلوب أصحابها، حتى قال القاضي الفاضل فيهم؛ ((أنتم يا بني أيوب ... سيوفكم آفة نفوس الأبطال))[٢]، إذ كشف مخرجات المعركة في الصورة الكنائية عن صفة في القوة والثبات من الرماح المكسرة، والسيوف المثلمة، وتظهر هذه الصور شجاعة صلاح الدين الأيوبي وقوة جيشهِ في المعركة.

* * * * * * *

٢- صورةُ صلاح الدين الأيوبي كريمًا:

لازمت صفةُ الكرمِ موضوع المديح في الشعر العربي، بوصفها سمة عربية أصيلة أقرها الدين الحنيف، وحثت عليها السُنة النبوية الشريفة، وقد حفظ لنا التراث العربي رموزًا عرفوا بالكرم بوصفه مظهرًا من مظاهر السيادة والقيادة، حتى غدت وتدًا من أوتاد بناء قصيدة المديح موضوعيًّا وجماليًّا، إذ يغوص الخيال في استنطاق المفردات والتراكيب الدالة على الكرم ولوازمه بصور تماثل الحقيقة أو تفوقها مبالغة، بتشكيل صور تقترب من الواقع أو تفوقه، وتزينه، و((لا تحتاج الصور إلى أن تكون جديدة لأحداث الاستجابة))[٣]، فتواردت ألفاظ

(١) البطل في شعر علي بن خلف الحويزي: ١٦٤.

(٢) ثمرات الأوراق: ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي(ت: ٨٣٧هـ)، طبع مكتبة الجمهورية العربية، ١٣٠٠هـ، مصر، ٢/ ٥٨ .

(٣) الصورة الشعرية: سي دي لويس: ٤٤.

الكرم في المديح ودلالاته بين الشعراء حتى صارت متوارثة في القيمة والصفة، كوصف الممدوح بالغيث والبحر والسحاب.

وقد تأثر الشاعر ابن الدهان الموصلي بالشعرِ العربي، وتتبع موضوعاته ومنطلقاته التصويرية عبر العصور التي سبقته، فنهل من ذلك التراث بما يخدم تجربته الشعرية، وصورته الموضوعية، إذ قصد الشاعر إلى رسم صورة صلاح الدين الأيوبي كريما باستحضار صورة الغيث والسحب التي تدل على كرمه وسخائه، إذ قال[١]:

بنَدى فتىً لو أَنَّ جُودَ يمينهِ ... للغيْثِ لم يَكُ مُمسِكًا عن مَوْضِعِ

صَبٌّ بأسباب المعالي مُغْرَمٍ ... كَلِفٍ بأبكارِ المكَارم مُولَعِ

ربُّ المكارمِ وُضَّحًا لم تَسْتَقِرْ ... بِدَنيَّةٍ يومًا ولمْ تتَمَنَّعِ

فإذا تبسَّم قال للجودِ انْدفِقْ ... فَيضًا ويا سُحْبَ النَّدى لا تُقْلعي

تُظهرُ الصورة صلاح الدين الأيوبي كريمًا سخيًّا برؤًى تعددت مفرداتها وأجزاؤها؛ إذ شكل الكرم محورًا أساسيًا من محاور تكوين الصورة عند الشاعر، فهو صفة الممدوح، قريبة إلى قلبه يحبها؛ فيكثر العطايا بلا خوف حتى أصبحت يده غيثًا يجود بمائه بلا وجل، وقلبه يعشق المعالي والمكارم، إذ لم يخلف ملكًا أو مالا لجوده[٢] ، فجعله الشاعر سحابة ممطرة دائمة العطاء، لا تستثني موضعًا من مواضع الأرض، حتى فاق كرمه الغيث، فكانت غايته المعالي التي يرعى أبكارها شغوفا بها؛ إذ كشفت ألفاظُ الكرم ومقترباته (الندى، والجود، واليمين، والغيث، وسحب الندى) صورة صلاح الدين الأيوبي على طبيعتها وسجيتها في الكرم حتى بات جوده غيثًا عميقًا.

(١) ديوان ابن الدهان: ٢٩-٣٠.

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين): ٣٤ .

وعقد الشاعر ابن الدهان الموصلي رابطًا معنويًا بين فضيلة الكرم / الجود، وفضيلة الشجاعة / القوة في رسم صورة صلاح الدين الأيوبي، وتعمل هذه التلازمية على دعم مصادر القوة في الصورة، فيقول[١]:

فَضَلَ الورى بفضائلٍ لم تتّفِقْ ... في غيْرهِ مَلِكًا ولَمْ تَتَجمعِ

للمُعْتفين رخاءُ ريحٍ سَجَسجٍ ... والمعتدين عجاج ريحٍ زَعْزَعِ[٢]

ومُديم بذْل النَّفس غيْرَ مُفَرِّطٍ ... وكثيرُ بَذْل المالِ غَيْرُ مُضَيِّعِ

كم وَقْفَةٍ لك في الوَغى مَحْمودةٍ ... أَبَدًا وكَمْ جُودٍ حَميد المَوْقِعِ

ربط الشاعر بين الكرم والشجاعة في تصوير شخصية صلاح الدين الأيوبي؛ لإرهاب العدو من جهة واطمأنةِ الفقراء والمحتاجين من جهة أخرى، مما يجعل حياة الرعية كريمة بقوة صلاح الدين وكرمه، فلا خوف عليهم من الأعداء والفقر، واستعمل الشاعر عبارة (رخاء ريح) بمحمولاتها الإيجابية التي تجلب الخير بدلالة لفظة (للمعتفين رخاء)، وهم ذوو الحاجات لرفع المعاناة عنهم في عيشهم، ووظف عبارة (عجاج ريح) بسياقاتٍ سلبية على العدو بدلالة لفظة (عجاج)؛ ليدلل على قوة صلاح الدين كأنه ريح قوية تزعزع أركان الصليبيين، فجاءت الصورة مزدوجة تجمع بين الكرم والشجاعة، فمن صفات مدح القائد أن ((يجانس البأس والنجدة، ويدخل في باب شدة البطش والبسالة، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة، والتخرق في البذل والعطية، كان المديح حسنًا والنعت تامًا، إذ كان السخاء أخًا الشجاعة))[٣]، وتلتصق في البيت الثالث تضحيته وصموده (مديم بذل النفس)، فهو (كثير بذل المال) لكرمه وسخائه، لكنه غير متلف له؛ لأن كرمه بلا إسراف أو تبذير أو رياء، ويؤكد البيت الرابع التلازمية بين الكرم والشجاعة، فله مواقف في مواجهة الأعداء الصليبيين، واتخذ

(١) ديوان ابن الدهان: ٢٩-٣٠.

(٢) سجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد: ينظر: لسان العرب: ٢ / ٢٩٥ ، مادة (سجج).

(٣) نقد الشعر: ١٠٩

الشاعر من (كم) الخبرية منفذًا للدلالة على تعدد مواقفه البطولية والكرم، وتظهر جمالية الصورة في تلازم فضيلتي الكرم والشجاعة في الحرب والسلم في صورة صلاح الدين الأيوبي.

وشكَّل الشاعر صورة لكرم صلاح الدين الأيوبي ومجده، وكسبه للمعالي، فقال ابن الدهان الموصلي[١]:

وإنْ بَخلوا واسْتَغْلَوا الحمْدَ مُرخَصًا رأى أرْخصَ الأشياء حَمْدًا وإنْ غَلا

ولو أنَّ مجْدًا في السَّماء سَمَا لَهُ ولو سُئِلَ الدّنيا نَوالاً لنُوِّلا

لو انَّ الذي ولاَّه أَمْنَ عِبادِه يُكَفِّلهُ أرزاقَهمْ لَتَكفَّلا

ورأي كضوءِ الشَّمس نورًا إذا انبرى لخطْبٍ جَلا لَيْلًا مِنْ الشَّكِ ألْيلا

تظهرُ الصورةُ علو مجد صلاح الدين الأيوبي وعظم كرمه، الذي ارتفع به وسما عاليا، وذلك دلالة على رفعته ومكانته، إذ كان سخيًّا، إذا سئل أعطى وزاد في العطاء، وَيَردُ التوافق في القيمة الدلالية بين (النوال)، والفعل (نوّلا)، إشارة لسعة كرمه وتواصُلِ جوده، بدلالة تكرار حرف (لو) في السياق الشعري الذي يسهم في رسم صورة صلاح الدين وقدرته في كسب المعالي من سمو وعطاء وكفالة بالمروءةِ والفعل والصفة.

وتكشف الصورة الضوئية أن له رأيًا (كضوء الشمس نورًا) في الوضوح والعلو والثبات في نوازل الدنيا وخطوبها، الذي (جلا ليلًا من الشك) به، فجعل الشاعر ضوء الشمس معادلا حسيًّا لرأي صلاح الدين الأيوبي بصورة تشبيهية تعظم أمره وتُعلنُ نباهة فكره؛ لغلبة حضور المشبه به في الذهن واقتضائه سرعة النفوذ ودفع الظُّلم والظلام، فشكلت ضابطًا وكاشفًا عن حنكته القيادية[٢]، وأظهرت صيغة الجمع (بخلوا، واستغلوا)، أنَّ أقرانه_ الملوك_ يرون الحمد غاليًا، ويراهُ صلاح الدين رخيصا وإن غلا عندهم، وجاءت صورة التضاد

(١) ديوان ابن الدهان: ٤١.

(٢) ينظر: الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٧٩.

بين (مرخصا) عند لجمع (الملوك)، و(غلا) عند المفرد(صلاح الدين)، لتبرز صفة كرمهِ وكبريائهِ وتواضعهِ معًا.

ومن صفات الملوك العظام أنهم ذوو بذلٍ وهيبة وسلطان، وهذه الصفات متحققة في صلاح الدين الأيوبي، فقال ابن الدهان الموصلي(١):

فسأغتدي من يُوسُفيٍّ مُقْتَدٍ بِعزيزِ مصْرٍ يُوسُفٍ مُستَنْصرا

مَلِكٌ إذا أبْصرتَه فَلقيتَهُ أَبْصرتَ بِشْرًا بالنَّجاحِ مُبشِّرا

ردْفُ الأَكارِمِ في مَدى بذْلِ النَّدى وجزى فكانَ السَّابِقَ المتأخِّرا

كسبَ المكارِمَ فاكتساها لابِسًا مُلْكًا وكانَتْ تُسْتَعارُ وتُشْتَرى

في وجْهِهِ اجتمعَ الجَمالُ وسَيْفُهُ حَتْفٌ ألَمَّ وكفُّه غيْث الوَرى

تظهر الصورة صلاح الدين الأيوبي بابتسامة وطلاقة في الوجهِ، وطلعة بهية، كجمال النبي يوسف (عليه السلام) عزيز مصر، كما أن صلاح الدين قد أصبح عزيزًا في مصر، وقد أفاد الشاعر من تطابق الاسمين يوسف بن أيوب ونبي الله يوسف (عليه السلام)، فاجتمع الاسم والمكان بينهما، بدلالة الصورة البصرية (أبصرته، أبصرت)، وكشفت صورة التضاد المعنى الايجابي بين (السابق المتأخرا)، فكرمه جعله الأول بين الملوك، وإن كان متأخرًا عن زمنهم، فهو الأطول عمرًا معنويًّا في زمنٍ كانت المكارم فيه تستعار وتشترى عند غيره؛ لقلّة فاعليتهم وضعف كفاءتهم، بدلالة بناء الفعلين للمجهول (تُستعار وتُشترى)، وقد رسم الشاعر صورة صلاح الدين الأيوبي في البيت الأخير بالتأكيد على جمال وجهه، وبياض يده في الكرم وشدّة ساعدِهِ في القتال بالسيف، وهذه الدلالة تأييد تكامُلِ شخصيته بجوانبها الخُلقية والخَلقية.

(١) ديوان ابن الدهان: ٥٠ – ٥١ .

ويخاطب الشاعر صلاح الدين الأيوبي خطابًا مباشرًا (يا شاري المدح الثمين)، باستعمال النداء (يا) الدالة على نداء القريب، فقال ابن الدهان الموصلي[١]:

يا شَاري المدْح الثمين مغاليًا لولاكَ أصبْحَ كاسِدًا لا يُشْتَرى

أَفْنيْت مالك واقْتنيتَ مَحامِدًا تَبقى مَدى الدُّنيا وتُفْني الأَعْصُرا

فسموْتَ مُنْتعِلَ السِّماك وتاركًا تحت الثَّرى مَنْ مالُهُ تحت السرى

وجَعلْتَ للآدابِ رَبْعًا آهْلًا بنَدى يَديْكَ وكانَ رسْمًا مُقْفِرا

بَهرتْ صِفاتُكَ مادِحيك وطَالَما قد جاوزَ الاحْصاءَ أنْ لا يبهرا

يصور الشاعر كرم صلاح الدين بشراء المدح، فالمدح لولاه لأصبحت بضاعتُه كاسدة في سوقِ المحامد، وعزز هذا الحضور بـ(كاف الخطاب) المباشرة التي تدل على (الممدوح) بالألفاظ (لولاك، ومالك، ويديك، وصفاتك، ومادحيك)، واستعمل الشاعر لفظة (أفنيت) استعمالًا إيجابيًا، فبفناء ماله / كرمه اقتنى المحامد، وأحيا ذكرها بالشعر، وسما ذكره عاليًا، فكرم صلاح الدين وجوده جعل للآداب أرضًا خصبة تنبت فيها المكارم؛ بعدما كانت مقفرة، وبهرت صفاته الشعراء والكتَّاب فأمعنوا في وصفه وزادوهُ مَدْحًا وبهاءً. وقد شكلت (تاء) الفاعل في الألفاظ (أفنيت، واقنيت، وسموت، وجعلت، وبهرت)، صورة صلاح الدين الأيوبي المتحركة بين المحامد والمكارم فأعطت دلالة السمو بالرفعة التي تجعل ذكره حيًّا بعد موته.

ويعتمد الشاعر ابن الدهان الموصلي التشبيه المقلوب في تشكيل صورة صلاح الدين الأيوبي، إذ قال[٢]:

ولاحَ الصُّبحُ يحكي في سَناهُ صلاحَ الدين يُوسُفَ ذا الصَّلاحِ

(١) ديوان ابن الدهان : ٥٢ .

(٢) ديوان ابن الدهان : ٦٢.

هَـــو الملـــكُ الـــذي أوْرى زِنَـــادي وفـــازَتْ عِنـــد رُؤيتـــه قِـــداحي

يُقـــرّب جُـــودُه أَقْصـــى الأَمـــاني ويضْـــمنُ بِشْـــرُه أَسْـــنى النَّجـــاحِ

ومبســـــوطٌ بنائِلِـــــه يَـــــداه إذا قُبِضـــتْ بـــه أيْـــدي الشِّـــحاحِ

ولمَّـــا ضَـــاق حـــدٌّ عـــن مَـــداهُ لَقينـــاهُ بآمـــالٍ فِسَـــاحِ

فَمـــنْ هَـــرِمٌ وكعْـــبٌ وابـــنُ سَـــعْدٍ رِعـــاءُ الشَّـــاءِ والـــنعَمِ المـــراح

فالصبح يشبهه في العلو والمنزلة، فصار ذا رفعة وقدر عالٍ، ويكمن جمال الصورة في هذا التشبيه الذي يحاكي الصبحُ فيه صلاح الدين في صفائه، بدلالة الصورة الضوئية (الصبح، سناه، أروى زنادي)، لينتج بؤرة تشع بها الصورة بشكل جلي، ويحقق المتعة الجمالية، باستثارة الآخر واستمالة عواطفه[١]. ويثبت الشاعر لقب الملك لصلاح الدين (هو الملك) دلالة على سيادتهِ وقوة سلطانه، وتتحرك الصورة البصرية لتثبت (رؤيته، ولقيناه)، صفة الكرم فيه، وتثبت الصورة الحركية (يقرب، ويداه)؛ ليحقق أصعب الأماني وأبعدها، فيداه مبسوطتان للكرم، ويؤكد تلك الصفة فيه، ويقرب الصورة أكثر من المتلقي، بحضور شخصيات تاريخية عرفت بالكرم مثل (هرم بن سنان ت: نحو ١٥ ق هـ)[٢]، وهو من أجواد العرب في الجاهليةِ يُضربُ به المثل، و(كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة)[٣]، وهو من كرماء العرب في حسن الجوار، إذ استدعى الشاعر تلك الشخصيات توثيقًا للصورة بالتراث.

(١) ينظر: الصورة الشعرية عند ابن الدهان الموصلي: ١٨٠.

(٢) الأعلام: ٨٢/٨.

(٣) الأعلام: ٢٢٩/٥.

والجود من الصفات التي رسمها الشاعر ابن الدهان الموصلي لصلاح الدين الأيوبي، إذ قال[١]:

جَـــوادٌ بـــالبلادِ ومـــا حَوتْـــه إذا جـــادوا بأَلبـــانِ اللِّقـــاحِ

وأَبْلـــج يَسْـــتهينُ المـــوْتَ يلقـــى بِصـــفْحةِ وجْهِـــهِ حـــدَّ الصِّـــفاحِ

ويخْشـــى مِـــنْ دنـــوّ العَـــار مِنْـــه ولا يخشـــى مـــن الأجَـــلِ المُتـــاحِ

وقَـــوّال إذا الأبطـــالُ فـــرَّتْ مكانـــك ثَبْتـــة مـــا مِـــنْ بَـــراحِ

كان صلاح الدين الأيوبي (جوادًا) كريمًا سخيًّا، وجاءت هذه اللفظة للدالة على الحدث مع الثبات في الزمن؛ ليظهر كرم يديه بما يملك، إذ يجود بأثمن الأشياء، وغيره يجود بألبان اللقاح، فالقائد المسلم ((مصدر خير ويمن وعطاء؛ لرعيته في الوقت الذي هو فيه مصدر شدة وبأس على الأعداء))[٢]، وتكشف صورة التضاد (يخشى، ولا يخشى) حرصه على المروءة، فلا تدانيه مثْلبة تقدح أخلاقه، ولا يخشى الموت في الوقت نفسه، وهو الشجاع المحارب الذي لا يفرُّ في ساحات الوغى، عندما تهزم الأبطال إذا حمي الوطيس، وفي ذلك دلالة على حبه الموت الذي يهبه الحياة الكريمة، باستعمال الأفعال المضارعة (يستهين، ويلقى، ولا يخشى)، لديمومة الحياة في المستقبل.

ويرسم الشاعر ابن الدهان الموصلي صورة لبني أيوب جميعهم، ثم يخصص صلاح الدين الأيوبي، بتصويره من زاوية شخصيةٍ بجمال وجهه ونضارته وكثرة كرمه، فقال[٣]:

مِـــن النَّفَـــرِ الـــذين إذا تحلّـــوا أَعـــادوا الليـــلَ أَحْـــلا مـــن صـــبَاحِ

أضـــاءَ الـــدَّهر بعـــد دُجـــاه نُـــورًا يَلـــوحُ علـــى وجـــوهِهم الصّـــباح

(١) ديوان ابن الدهان : ٦٣.

(٢) أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي: ١٣٠ .

(٣) ديوان ابن الدهان : ٦٤.

تَفـــيضُ بُطـــونُ راحَـــتِهم نَـــوالًا ويَسْـــــتلِمُ المُلـــــوك ظُهـــــورَ رَاحِ

فإذا ظهر صلاح الدين الأيوبي في الليل، فإن وجهه من الصباح أجمل، يضيء الليل بنوره ويأمنه الناس لعدله وقوة سلطانه، ويردفها الشاعر بصورة الكرم، إذ تفيض أيديهم (بني أيوب)، بالكرم والعطاء ((أنتم يا بني أيوب أيدكم آفة نفائس الأموال))[١]، إذ إن يد صلاح الدين الأيوبي مصدر الكرم واعطاء.

ويصور الشاعر صلاح الدين الأيوبي كريمًا حكيمًا رشيدًا يسخر ماله في دروب الخير، فقال ابن الدهان الموصلي[٢]:

مُلـــوكٌ جُلّهـــم مُغْـــرًى بظلْـــم ومَشْـــــغولٌ بِلَهـــــوٍ أَوْ بِـــــراحِ

يـــروا الانْفـــاق فـــي الخيْـــرات خُسْـــرًا وأَنـــتَ تـــراهُ مِـــنْ خيْـــرِ الرّبـــاحِ

هُـــمُ جَمعـــوا، وقـــد فرَّقـــتَ لكـــنْ جَمعْـــتَ بـــه الرّجـــالَ مـــع السِّـــلاحِ

وكـــم نَتَجـــتْ حُـــروبٌ أَلْقحَتْهـــا سَـــيوفُكَ والنّتـــاجُ عِـــن اللّقـــاحِ

وكـــم لِظُبـــاكَ مـــن يـــوم اغْتبـــاقٍ مِـــن الأَعـــداء أَو يـــوم اصْـــطباحِ

وكـــم ذلّلـــتَ مـــن مَلِـــكٍ عَزيـــزٍ وكـــم دَوَّخـــتَ مِـــن حـــيٍّ لَقـــاحِ

استعمل الشاعر الثنائية الضدية في إبراز صورة صلاح الدين الأيوبي، فالإنفاق / الخسران عند الملوك الذين ينفقون مالهم في (الظلم واللهو والخمرة)، لكنَّ الإنفاق عنده بناء للدولة وقوة (الرجال مع السلاح)، فالسلاح وسيلة من وسائل ((الحياة والقدرة الفاعلة في تحقيق النصر، والأداة المتحكمة في تغيير الواقع))[٣]، فكانت حروبه حروب نصر وتحرير مع أعدائه الصليبيين، وكانت ثمرة إعداد الرجال وشراء السلاح ، أن دانت له الملوك والأقوام، فحروبه تلقح

(١) ثمرات الأوراق: ٢/ ٥٨ .

(٢) ديوان ابن الدهان : ٦٤_٦٥.

(٣) صناعة السلاح عند العرب: د. نوري حمودي القيسي، مجلة دراسات الأجيال، المجلد(٢)، العدد (١)، لسنة ١٩٨١م، ٦٣ .

النصر والخير- عادلة- ، وحروب خصومه عقيمة -باطلة-، ووظف الشاعر الخطاب لصلاح الدين بالمفرد للتفرد (أنتَ)، يقارنه بالجمع (الملوك)، فيظهر تفوق صورة الفرد على الجماعة من الملوك، كما كشف توظيف الجمع (السيوف، والحروب، والأعداء)، كثرة حروبه واستمرارها، إذ شكلت (كم) الخبرية إشارة واضحة إلى قوة صلاح الدين وشجاعته في القيادة التي فرض بها سيطرته على بلاد الشام ومصر.

وبيَّن الشاعر ابن الدهان الموصلي كرم صلاح الدين الأيوبي ومجده، إذ قال[١]:

صَحِيحٌ صَرِيحٌ مجدُهُ وفِعَالُهُ تَصدَّق فيهِ المدْحُ وهو صَحيحُ

لَهُ هِزّةٌ عند المدائِح للنَّدى كما اهْتزَّ غُصْنُ البان وهو مَرُوحُ

حيِيٌّ غَضيضُ الطَّرْف عن كلِّ محرم ولكنَّه نَحوَ العَلاءِ طَموحُ

شُجاعٌ لَدى الَهيْجا جَبانٌ عن الخَنا كَريمٌ على العِرْض المصُون شَحيحُ

جعل الشاعر صورة الكرم وأطرافها، تكشف الفعل الصائب لصلاح الدين وقوله الصحيح في (الرأي والمشورة والقوة)، ومجده الصريح في (الطموح والإرادة)، والتفاعل النفسي مع المديح، والتواصل مع الواقع بالشعر، والحركة وغض الطرف بوعي أخلاقي، والإقدام والشجاعة، فهو شجاع مغوار في البأس، وجبان عن الخنا والمثالب، فالسماحة شيمته والعفو خلقه، وتلك صفات المروءة فيه، فالمروءة ((ترابطت ترابطًا وثيقًا مع شجاعة البطل))[٢]، إذ إن أفعاله صحيحة صريحة بين الناس لا كذب فيها ولا رياء، بدلالة رد العجز على الصدر(صحيح)، وأثبتت صورة التشبيه (كما اهتز غصن البان) أن له هزة عند المدائح كما يهتز الغصن بالريح دلالة على كثرة كرمه ودوامِ جوده، ، وقد استعمل الشاعر ألفاظ التضاد (شجاع، وجبان)، و(كريم، وشحيح)،

(١) ديوان ابن الدهان : ١٧٠ .

(٢) البطل في شعر الحروب الصليبية: ٧٥ .

و(الحَنـا، والحيـاء)، ليظهـر الصـورة جليـة عبـر دلالات يستحضـرها للمتلقـي فـي ذهنه.

* * * * * * *

كشـف البحـث تـرابط الصـفات وتعـانق المعـاني فـي صـورتي الشـجاعة والكـرم فـي رسـم صـورة صـلاح الـدين الأيـوبي فـي شـعر ابـن الـدهان الموصـلي، ويـدل هـذا علـى عدلـه فـي البـذل للرعيـة، وقبـل ذلـك قوتـه فـي كسـر شـوكة الصليبيين، فكانت يده مصدر تلك القوة والعدالة في صورته.

وظهـرت قـدرة الشـاعر بـربط المعـاني والـدلالات وتوليـد بعضـها مـن بعـض فـي تشـكيل صـورة صـلاح الـدين، وكشـفت اللغـة الشـعرية براعـة الشـاعر فـي التصـوير، إذ وظـف ألفاظًـا حربيـةً بجملـه الشـعرية؛ فكشـفت لغتـه الشـعرية جمـال الأسلوب ووضوح المعنى ودقة التراكيب وألفاظها.

وتـرد أسـماءَ الممـدوحينَ – فـي التـراث الشـعري – تحمـل دلالات معنويـة وإيحـاءات موضـوعية فـي الكـرم والشـجاعة؛ لصـياغة صـورة صـلاح الـدين الأيـوبي، وتقريبها من خيال المتلقي.

The Image of Salahedin AlAyoubi in The Poetry of Ibn Addahhan AlMousili (Died 581 H)

Lecturer Dr. Jarjees Aakob Abdullah Arrashidi

Abstract

The image of Salaheldin Alayoubi in the poetry of Ibn Addahhan Almousili reveals descriptive scenes, and truthful events deepen the objective and the artistic experiment of the poet which evoke his reaction and imagination in exploring the personality of Salaheldin Alayoubi and its real dimensions, when he made the images of courage and generosity as main pivots in his poetry, then the images went together and associated in presenting the image of Salaheldin. Accordingly their semantic references were varied to evoke the visions of the audience and excite him by forming the image of Salaheldin Alayoubi and show its own dimensions that is accomplished poetically and harmonized actually. So the poet presented an associative and communicative image between the image of courage and the image of generosity, then to be imagined mentally by the audience then the audience itself apply it on the reality.